

محمد لخضر بن الحسين شيخ الأزهر

1873 – 1958

أ. الهاشمي عثماني*

محمد لخضر بن الحسين، واحد من علماء الجزائر المغمورين، رغم أن شهرته بلغت أوجها في بلاد المشرق العربي، حيث كان واحدا من أعلام الأزهر الشريف.

نشأ في بيت علم وأدب، وانتقل صغيرا إلى تونس ومصر ودمشق والأستانة.. متعلما ومناضلا وداعية إلى أن تولى مشيخة الأزهر باقتراح من جمال عبد الناصر وإلحاح من الشيخ حسن الباقوري. كلفتة الدولة العثمانية بمهمة سياسية إلى ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى رفقة عدد من العلماء لبعث الثورة ضد الاستعمار الفرنسي في بلدان المغرب العربي، أسس عددا من المجلات وترأس تحريرها، وشكل جمعيات سياسية واجتماعية للدفاع عن الجالية المغاربية في القاهرة، كان عضوا

*. كاتب صحفي.

في كل من مجمع اللغة العربية في دمشق والقاهرة، شارك في المعارك الفكرية والأدبية في مصر، جادل طه حسين ورد علي علي عبد الرزاق... له عدد من المقالات والأشعار، تبقى الحاجة إلى تحقيقها ونشرها من مهمة من يعرفونه.

نشأ محمد لخضر حسين وسط بيئة علم وأدب وثقافة. وكان وهو صغير، لا يغادر حلقات الدرس والمناظرة التي كانت تقام بزاوية الشيخ مصطفى بن عزوز، جده لأمه. وبعد أن حفظ القرآن الكريم في زاوية نفطة، على يد شريحة عبد الحفيظ الموشى. وتلقى شيئاً من علوم الدين واللغة، على يد خاله محمد المكي بن عزوز، إنتقل وهو في الثالثة عشرة من عمره إلى تونس رفقة أسرته، والتحق بجامعة الزيتونة مع إخوانه الأربعة محمد الجنيدى، محمد العروسي، زين العابدين، ومحمد المكي.

ويقول وصف الشيخ المناخ العلمي الذي ترعرع فيه، في ديوانه الشعري "خواطر" قائلا : "نشأ (ت) في بلدة من بلاد الجريد بالقطر التونسي يقال لها نفطة، وكان الأدب المنظور والمنشور في هذه البلدة، نفحات قهب في مجالس علمائنا، وكان حولي من أقاربي من يقول الشعر، فتذوقت طعم الأدب من أول نشأتي وحاولت وأنا في سن الثانية عشرة نظم الشعر".

ولا غرابة أن يسلك أبناء الأخت مسلك خالهم الشيخ محمد المكي مصطفى بن عزوز الذي كان مدرسا بالزيتونة. وبالفعل تخرج الطالب

محمد لخضر بن الحسين شيخ الأزهر...

محمد لخضر بشهادة التطويع من هذه الجامعة سنة 1898. وهي الشهادة التي تمكن حاملها من التدريس فيها والفوز بمناصب دينية وعلمية.

وقام الشيخ بالتدريس في الزيتونة قبل أن يؤسس مجلة "السعادة العظمى" هي أول مجلة عربية تظهر في تونس خلال شهر محرم /أبريل 1904. وكانت نصف شهرية، وصدر منها 21 عددا.

عاد الشيخ لخضر إلى أرض أجداده مرتين، الأولى وكانت عودة أسرية، حيث إنتقل إلى مسقط رأس والده الحسين، فزار قبر جده لأبيه علي بن عمرة بطولقة وجده لأمه مصطفى بن عزوز ببرج بن عزوز وهذا عام 1903. والعودة الثانية كانت في شهر نوفمبر من العام الموالي، وتناول هذه الرحلة في مجلته، حيث تطرق إليها في الأعداد : 19 و 20 و 21 ديسمبر 1904 و 7 جانفي 1905 تحت عنوان "الرحلة الجزائرية" ودامت 12 يوما وشملت زيارة العديد من المدن شرقا ووسطا من سوق أهراس إلى الجزائر العاصمة، والتقى خلالها بمجموعة من العلماء وزار المساجد والمكتبات، وحضر بعض الدروس الدينية واللغوية، وألقى محاضرات في الفقه والحديث والتفسير وشارك عددا من علماء الجزائر في مجالسهم الأدبية وتعرف على البعض منهم، أمثال محمد بن شنب الذي قال عنه : أخذنا معه أطراف محاورة أطلعتنا على مائة من النباهة التامة والتفقه في الأمور الحديثة زيادة على ماله من التفنن : "نستحسن من دروس هذا الشيخ إقتصاره في كل فن على تقرير مسائله التي يشملها موضوعه وعدم

خلط بعضها ببعض". وعبد الحليم بن سماية وعلي بن الحاج موسى، وبوقندورة المفتي الحنفي آنذاك.

رحلته إلى المشرق العربي

شجعه إنتقال إخوان الشيخ إلى دمشق سنة 1911 على التوجه إلى الشام يوم 18 جويلية 1912. ووصف هذه الرحلة برحلة "زيارة الأهل" ومكنته من زيارة أكثر من بلد : مصر التي إلتقى فيها بالشيخ رشيد رضا، وبلاد البلقان، والباينا، والحجار والاستانة، إلى أن إنتهى به المطاف في دمشق، حيث التقى إخوانه المقيمين هناك. ووجد بعاصمة الأمويين المناخ العلمي والثقافي الذي كان يتوق إليه - وألقى دروسا بالمدرسة السلطانية، وحاضر بالجامع الأموى ونشرت له الصحف المحلية والمجلات، مقالات ثقافية وسياسية عديدة. وفيها ناصر الخلافة العثمانية والدعوة إلى توطيد عرى الإخوة العربية التركية وهو القائل : أعمل للقضية الإسلامية بقدر ما أستطيع رغم سجنه من طرف الحاكم التركي للشام جمال باشا المعروف بعدائه للنخبة المثقفة، بتهمة المشاركة في حركة المثقفين السوريين ضد نظام الحكم العثماني ولم يطلق سراحه إلا عام 1917. فعاد إلى نشاطه العلمي والأدبي ثم إستدعى من مركز الخلافة بالإستانة للعمل في وزارة الحرب التركية. وكان من أصدقاء علي باشا (حامية) زعيم حركة "الشباب التونسي" الذي نفته فرنسا من تونس، وتوجه إلى الإستانة لدى الباب العالي حيث كان يوجد عدد من زعماء الحركات الوطنية العربية ممن إضطهدهم الإستعمار الغربي. وهكذا، توسعت

محمد لخضر بن الحسين شيخ الأزهر...

مدارك الشيخ لخضر وتكونت شخصيته العلمية والنضالية طوال هذه السنوات التي قضاها في بلاد الشرق.

فبعد أن تولى التحرير بالقلم العولي في عاصمة الخلافة مدة سنوات، كلف بمهمة إلى ألمانيا التي كانت في حالة الحرب مع فرنسا، فسافر إلى برلين صحبة عدد من العلماء أمثال السيد صالح الشريف أستاذ سابق بجامعة الزيتونة والسيد إسماعيل الصفحاحي، القاضي الحنفي السابق بتونس.

وأرتبطت هذه البعثة العلمية إلى ألمانيا بما كانت تهدف إليه الدولة العثمانية التي كانت حليفة لألمانيا في الحرب العالمية الأولى من إشعال ثورات شعبية في بلدان المغرب العربي ضد الإستعمار الفرنسي.

عاد الشيخ إلى دمشق التي تحررت من الحكم العثماني والتحق بالتدريس أثناء تولي الملك فيصل بن الحسين رئاسة الحكومة العربية. بالمدرسة السلطانية والجامع الأموي. وما إن حل عام 1919 وتأسيس مجمع اللغة العربية بدمشق حتى عين عضوا عاملا صحبة مجموعة من العلماء منهم محمد كرد علي ومحمد بن شبن (الجزائر) وحسن حسني عبد الوهاب (تونس) والمستشرق الفرنسي ماسينيون والمستشرق الألماني بروكلمان.

موعد من مشيخة الأزهر

لما حل الشيخ محمد لخضر بمصر سنة 1920 راح يوطد الصلة بأولئك الذين تعرف عليهم أثناء زيارته الأولى لمصر، فالتقى أولا بالأستاذ أحمد

تيمور الذي ربطته به علاقة وطيدة، وساعده على إيجاد عمل في دار الكتب المصرية، وهناك شرع الشيخ في النشاط العلمي والثقافي بقاء المحاضرات في المساجد، وكتابة المقالات في الصحف والمجلات. وأسس مع عدد من طلبة المغرب العربي في الأزهر "جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية" في جوان 1924. وكان دورها يتمثل في رفع المستوى الثقافي والإجتماعي لهذه الجالية.

وبمجرد إلغاء الخلافة العثمانية نهائيا عام 1924 أصدر الشيخ علي عبد الرزاق، أحد علماء الأزهر كتابه "الإسلام وأصول الحكم" في شهر أبريل 1925 أكد فيه "أن الخلافة ليست ضرورية لقيام حكومات إسلامية حديثة وأنها ليست من الدين في شيء، وهو الكتاب الذي أثار ضجة واسعة في أوساط رجال الدين وعلماء الأزهر. ووصف صاحب مجلة "المنار" الشيخ رشيد رضا الكتاب بأنه "دعوة جديدة إلى نسف بنائها (أي الخلافة) وتضليل أبنائها، وقررت هيئة كبار علماء الأزهر طرد صاحب الكتاب متهمه إياه بالإلحاد. وفاجأ الشيخ محمد لخضر الهيئات العلمية المصرية بإصدار كتاب يرد فيه على علي عبد الرزاق سماه "نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم" وتجاوبت معه الأوساط العلمية داخل الأزهر وخارجه ونال حظوة لدى الملك.

ولما نشر طه حسين كتابه "في الشعر الجاهلي" عام 1924 الذي أثار فيه مسألة إنتحال معظم أشعار الجاهلين شارك الشيخ في المعركة الأدبية ونشر

محمد لخضر بن الحسين شيخ الأزهر...

كتاب آخر بعنوان "نقض كتاب في الشعر الجاهلي" وأعتبر الدكتور طه حسين كتاب الشيخ لخضر من أهم الردود وأقوالها حجة. وزاد كتابه هذا في سمعة الشيخ وشهرته بين العلماء والأدباء في مصر وخارجها.

ولم يقتصر نشاط الشيخ على التأليف وإلقاء المحاضرات، بل إمتد إلى تأسيس الجمعيات الثقافية والعلمية. حيث أسس في يوم 06 جانفي 1928 "جمعية الهداية الإسلامية" وحضر حفل ميلادها مفتي مصر الشيخ عبد الرحمن قراعة والكاتب الأديب أحمد تيمور والسياسي عبد الرحمن عزام الذي أصبح فيما بعد أول أمين عام للجامعة العربية.

وعندما صدرت مجلة جامع الأزهر "نور الإسلام" سنة 1930 أسندت رئاسة تحريرها إليه وهو يمارس مهمته كأستاذ في الأزهر الشريف، هذا إلى جانب اختياره عضوا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ضمن الأعضاء الآخرين وعددهم 20 شخصا بموجب مرسوم ملكي.

وإلى جانب تأسيس "جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية" أثناء الحرب العالمية الأولى، واصل جهوده في مساعدة أبناء المغرب العربي بشكل منتظم، شارك في تأسيس "جبهة الدفاع عن إفريقيا الشمالية" بعد الحرب العالمية الثانية، تمثل دورها في محاربة الاحتلال الفرنسي لبلدان المغرب العربي ومساعدة الأحزاب الوطنية في كل من الجزائر وتونس والمغرب وكان ضمن أعضائها الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة وممثل حزب الشعب الجزائري في القاهرة.

وقام الشيخ الخضر بتقديم يد المساعدة إلى الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة عندما حل بمصر عام 1945 كما زار الزعيم المغربي عبد الكريم الخطابي على متن السفينة التي أعادته من منفاه إلى المغرب عام 1947 ونظم قصيدة تغني فيها ببطولته بعنوان "بطل الريف" من بين ما قاله فيها :
يصرخ المغرب غبطا وإحتراقا... صرخة المناهض للموت اشتياقا لا تلوموه إذا خاض الوغى... ورأيتم دمه الغض مراقا.

وبمجرد أن قامت الثورة، أرسل مجلس الثورة، عددا من الوزراء إلى بيت الشيخ محمد لخضر، لإخباره بقرار جمال عبد الناصر ومحمد نجيب باختياره شيخا للأزهر وهو الذي تحصل على الجنسية المصرية عام 1932.
وقبل الشيخ هذا المنصب بعد أن رفض في البداية، وهذا بإلحاح من الشيخ حسن الباقوري وزير الأوقاف الذي كان يتولى هذا المنصب آنذاك.

وباشر الشيخ رغم أن عمره كان حينذاك في الثمانين، هذه المسؤولية نظرا لعلمه وسمعته وشهرته، بمساعدة عدد من كبار علماء الأزهر الشريف، وظل في هذا المنصب إلى غاية 1954، عندما أُنْتابه المرض، ومنعه من القيام بواجباته. فطلب من عبد الناصر، أن يعفيه من هذه المسؤولية حيث ترك مشيخة الأزهر يوم 8 جانفي 1954. لكنه ظل يحضر جلسات مجمع اللغة العربية باستمرار إلى أن وافته المنية يوم 2 فيفري 1958.

لقد رحل هذا العالم الجليل، تاركا وراء أعمالا جليلة وشهرة عربية وإسلامية بلغت الآفاق، أسهم بلسانه وقلمه في الدعوة إلى الإسلام والذود عن لغة القرآن، والدفاع عن أوطان المسلمين.